مؤتمر جامعة فيلادلفيا الأردنية الدولي الحادي عشر:

مقاربات لثقافة الخوف عند العرب وتوصيات بإزالة العوائق أمام حرية الفكر والإبداع الثقافي والإعلامي

عمان ـ «القدس العربي»
ـ من يحيى القيسي:

شهدت جامعة فيلادلفيا (25 كلم شمال عمان) خلال الفترة من 24 ـ 26 من شهر إبريل الجاري وقائع مؤتمرها الدولي الحادي عشر الذي أقامته كلية الآداب والفنون فيها تحت عنوان «ثقافة الخوف» بمشاركة 81 باحثا ومشاركا من تسع عشرة دولة عربية واسلامية مثلوا ما يزيد عن خمسين جامعة ومؤسسة عربية وإسلامية وأجنبية، وقد ناقشوا خلال الأيام الثلاثة مجموعة من الموضوعات المتعلقة بثقافة الخوف، منها: الإطار النظري والفكري، بيئة الخوف: النظام السياسي والاجتماعي والقيمي لثقافة الخوف، الظروف الموضوعية لإنتاج الخوف العربي من الغرب، الخوف المتبادل بين الشرق والغرب، تجليات الخوف في الأدب والفن والإعلام، نتائج ثقافة الخوف، مقاومة الخوف وآليات التخلص منه.

أما التوصيات التي خلصوا إليها فيمكن الإشارة إلى بعضها هنا ومنها:

ضرورة التنبّه إلى خطر كون الدولة أداة تخويف للمجتمع مما يترتب عليه آثار سلبية على العلاقة السليمة بين المجتمع والدولة على النحو الموجود في الدول المتطورة، ورفض عسكرة العولمة وهيمنة الثقافة الاستهلاكية التي تهمش خصوصيات الثقافة الوطنية، والمطالبة بضرورة امتلاك عوامل القوة لصياغة مستقبل أفضل في ظل تحديات العولمة والثورات التكنولوجية المتعاقبة. كما قدر المؤتمرون عالياً المقاومة الوطنية التي كسرت جدار الخوف خصوصاً في فلسطين ولبنان والعراق، إضافة إلى توجيه التحية لجهود المثقفين الذين يتصدون للدفاع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها، دون تدخل خارجي وحقهم في اختيار أنظمتهم السياسية والوطنية. وحرص المؤتمرون على وحدة واستقلال وسيادة الدولة الوطنية منبهين إلى مخاطر محاولة تفكيك الدولة العربية إلى كيانات طائفية وقبلية وإثنية تحت مسميات عدة، منها مشروع الشرق الأوسط الكبير، في الوقت الذي تتوجه فيه المجموعة الأوروبية والأسيوية إلى وحدات جغرافية حيوية كبيرة، كما أوصوا بضرورة تعزيز شخصية الطفل العربي الإسلامي وبناء ثقته بنفسه وتحصينه قيمياً بما يضمن له بناء شخصية وطنية متماسكة متوازية في مواجهة الخوف وآثاره. ورأى المؤتمرون أن العلاقة الحالية بين العرب والمسلمين من جهة والغرب من جهة أخرى باتت أكثر تأزماً بسبب الانحياز الكامل الذي يبديه الغرب في تبنيه لإسرائيل واعتماد الكيل بمكيالين، وخاصة في المسألة النووية والمسألة الديمقراطية والإرهاب الفكري، كما أبدى المشاركون القلق والاستهجان لمظاهر القمع والإرهاب الفكري والتخويف للمؤسسات العلمية الأكاديمية على نحو ما ورد من رد الفعل تجاه باحثي جامعة هارفرد (والت وميرشايمر) وغيرها من المؤسسات الأكاديمية في أمريكا وأوروبا، وقد نبهوا أيضا إلى التوجهات الحالية المتمثلة في استمرار إهمال اللغة العربية كلغة تعليم، مقابل الإصرار على التعليم بلغات أخرى (إنجليزية وفرنسية) في مختلف المراحل التعليمية وفي المؤسسات الرسمية والخاصة، ورأى المشاركون أن هذا التوجه يفقد الأمة هويتها ويخالف الدساتير العربية والمواثيق الدولية وبشكل خاص الصادرة عن الأمم المتحدة، كما أوصوا بضرورة إزالة العوائق التي تقف أمام حرية الفكر والإبداع الثقافي والإعلامي وإعادة النظر في آليات الرقابة على وسائل الإعلام المكتوب والمسموع والمرئي والتخلص من جميع أشكال الضغط والترويع التي تمارس على الإعلاميين، وطالبوا بتحرير الإعلام من الرسائل التي تبعث على الخوف والترهيب وإشاعة الرعب على مختلف الصعد وبالأخص البرامج الموجهة للأطفال، وأخيرا أوصوا بعقد المؤتمر الثاني عشر لجامعة فيلادلفيا تحت عنوان «ثقافة الصورة».

من حوار الثقافات إلى الروحانية

هنا بعض اوراق العمل الملخصة التي ألقيت في المؤتمر، وقد افتتحها المفكر الفرنسي د. دومينيك شوفالية من جامعة السوربون وعنون ورقته «من القوميات العربية إلى النداءات الإسلامية الموحدة: من حوار الثقافات إلى الروحانية ومما جاء فيها «هل الشرق العربي يغرق أم أنه يحيا من جديد؟ هل الصعوبات الاجتماعية والسياسية لا تفضي إلا إلى تهييج المنافسات العشائرية والمواجهات الطائفية؟ هل وفرة رؤوس الأموال المتداولة لا تغذي إلا الفساد ولا تزيد الأغنياء إلا غنى؟ أين تضع الشعوب آمالها ومثلها العليا المنادية بالمساواة؟

إن شعورنا بأننا نعيش نهاية حقبة يولد لدينا غالبا الخوف الجماعي. إن الغضب الشعبي في الشرق الأوسط ناتج عن الاضطرابات الاجتماعية وتغذيها قنوات متعددة منها النعرات الطائفية، كما أن النزاع المسلح سواء كان داخلياً أم دولياً يزيد التوتر بين الأديان والهويات الثقافية المختلفة. في ظل العولمة التي نعيشها وفي ظل إعادة الهيكلة الإقليمية التي نخضع لها فقد أصبحت هوياتنا الشخصية محط اتهام. إذاً فهي تدافع عن نفسها. كيف؟ ولأي هدف؟ هل هي لرفض الآخر والسيطرة عليه؟ أم هي لتقبله ولبناء مستقبل معه يحترم فيه كل فرد؟

إزاء كل هذه الأسئلة فإن الأدلة تفرض نفسها: فالطوباوية ينتج عنها مسرحية الحياة الهزلية الحقيقية، وفي هذه الحالة فالحقيقة غالباً ما تكون جهنمية بالنسبة لغالبية البشر، ومع ذلك فهي لا تفضل بالضرورة الواقعية الأخلاقية عند الذين يستفيدون من النعيم المادي. من جهة أخرى فالطوباوية لا تتعهد بالجنة للجميع إلا وفق بعض الشروط.

لقد علمتنا الخبرة بأن الطوباويات تودي غالباً إلى أنظمة حكم سياسي جماعي وإلى الاستبداد. إن الولايات المتحدة تمتلك أقوى جيش في العالم لذا فإن الخطر الإيديولوجي الرئيسي يأتي إذن من التبرئة الإنجيلية التي تثيرها الإدارة الأمريكية الحالية التي يضم لها المحافظون الجدد إدعاءات صهيونية، أما بالنسبة للتيارات الإسلامية فهي تشعل خوف المسلمين من الآخر الغربي.

إن الاختلاف في حضن الدين الواحد والتعايش السلمي بين الأديان لنفس الحضارة يفرض نفسه أيضاً على العلاقات بين الحضارات والأديان والفلسفات. إن الأوضاع السياسية والاجتماعية الداخلية لها دائماً آثارها على العلاقات الدولية. إن تحليل كل أبعاد العقل وأشكال الحياة في المجتمعات يجب أن يحث البشر على احترام الدور الذي يقومون به وذلك بتهيئة كل وسائل التقارب الديني».

أما الباحث موفق محادين من الأردن فقد تناول الخوف كظاهرة اجتماعية مرتبطة بالمجتمعات البطركية بوصفها مجتمعات طبقية، وتلاحق هذه الظاهرة منذ الانقسام الاجتماعي الأول وحتى العصور الرأسمالية عبر ناظم منهجي موحد مشتق من الثلاثية الفرويدية المعروفة الخطيئة ـ العقاب ـ الندم، وتستند هذه المحاولة لدراسات فرويد (الطوطم والتابو) وأريك فروم (الخوف من الحرية) وديزموند موريس (القرد العاري) وثلاثية الجابري (القبيلة ـ العقيدة ـ الغنيمة) التي تتخلل ثلاثيته حول العقل العربي والسجالات المعروفة لمدرسة فرانكفورت، ففي المرحلة المبكرة للتابو لم تكن هذه الظاهرة قد توطدت بسبب غياب المعايير الاخلاقية للحلال والحرام والثواب والعقاب في المراحل ما قبل الرأسمالية ثم الحقوق والواجبات في المرحلة الرأسمالية. كما ان العلاقة بين الخوف والندم في المراحل اللاحقة اختلفت في دلالتها الاجتماعية باختلاف الوظيفة الاجتماعية لطقوس الندم: الاستدعائية في مرحلة ما قبل الاديان والاسترضائية لاحقاً وذلك على ايقاع انقلاب المعادلة بين الآباء والابناء من قتل الأب واستعادته في التحيينات الطوطمية السنوية الى قتل الأبن (المسيح) مثلاً، كما أولت الورقة اهتماماً خاصاً لما يمكن تسميته بالطابع الشيطاني للتاريخ المصدر المعرفي لظاهرة الخوف في تبدياتها المختلفة.

وتناولت د. غيدا ضاهر من لبنان «ثالوث الخوف: الله والسلطان والأب» وقالت فيه «إن اختيار هذا الثالوث ليس اعتباطياً لأن كل واحد من أطرافه هو مصدر خوف يتطلب الطاعة وإلا فالعقاب من ناحية، ومن ناحية ثانية لا ينفصل الخوف من واحد منهم عن الخوف من الطرفين الآخرين. وهذا الترابط يجعلنا نفكر في أن هذا الثالوث يشكل القاعدة الأساسية لثقافة الخوف التقليدية في المجتمع العربي، وفعلاً فإننا إذا نظرنا إلى الدراسات في المجال السياسي وفي المجال الديني وفي المجال التربوي فإننا نلاحظ أنها تشترك كلها في التركيز على الطاعة التي يجب الخضوع لها خوفاً من العقاب. إن سلطة الثالوث الله/ السلطان/ الأب، تعتمد على ثالوث آخر من القيم هو الخوف / العقاب/ الطاعة». ما الذي وراء هذه العلاقة الثلاثية باعتبارها علاقة سلطة تنتج الخوف؟؟ طبعاً، وراءها أبعاد إجتماعية وإقتصادية وثقافية متداخلة ومتكاملة لأن التدخلين في هذه العلاقة (السلطان الأب ورجل الدين) كفاعلين إجتماعيين يمثلون مواقع ومصالح يعبرون عنها ويحافظون عليها بطرق مختلفة، بما في ذلك استعمال القوة المادي».

أما د. الطاهر لبيب من تونس فقد اقترح في مداخلة له بعنوان «من الخوف إلى التخويف» تعريفاً لثقافة الخوف، بناءً على تلازم غير مسبوق لثلاثة توجهات: الدفع نحو تجاوز صورة الدولة كمصدر للخوف وتراجع الصراع المباشر أو تبادل الخوف بين الدول، كدول، واندراج آليات التخويف في نظام عالمي للخوف. التوجهات الثلاثة تقوم على استراتيجيات يتحول فيها الخوف ـ كحالة معهودة ـ إلى تخويف. وهي استراتيجيات ـ مهما توحّدت، سياسياً ـ تواجه أبعاداً اجتماعية وثقافية مرتبطة بتنوّع المجتمعات، ومن الصعب اختزالها إو إخفاؤها، رغم تنميط الخوف وتعميمه، محلياً ودولياً».

وتناول الباحث الفلسطيني من جامعة مدريد د. محمد الجعيدي مسألة «انتقال التكنولوجيا الحديثة إلى العالم النامي، بين خوفين: يقظة الآخر وسطوة القوة» وجاء في ملخصها «سممت الكنيسة الغربية مجتمعاتها طوال قرون بعُقد زعاف من الأنانية والحقد والتعالي على الآخر، وبخاصة على العرب والمسلمين، ووجدت عقد الخوف الغربية لها موئلاً في أنانية تدفع بصاحبها إلى التشبث بتفوق ظالم على الآخر واستغلاله وإبادته، وحقد لا يرى أحقية الغير في العيش والأمن والتنافس الشريف، وتعال لا يستوعب ناموس المساواة بين البشر. بتلك العُقَد، يعبّر الغرب المتطور مادياً، وهو في مجمله من القوى العاتية ذات التاريخ الاستعماري الدموي، عن الخوف الذي يساوره من فقدان التميز والامتياز، بل ومن المساءلة عن جرائمه ومطالبته بإيقافها، إن لم يكن بدفع التعويضات لضحاياها، إذا ما أصبحت الضحية في وضع الندية أو حتى التفوق القادر على المساءلة. ففي كيمياء خوف الغرب من الآخر، عربياً كان أم مسلماً، تمتزج أيديولوجيا التطرف في إنكار هذا الآخر وجنون الاستحواذ على مقدراته ومستقبله، بالوعي بقدرته على الانبعاث والنهوض من كبوته، إذا ما سيطر على ثرواته وتوفر لديه الحد الأدنى من الحرية والأمن والأمان وخيار تقرير المصير».

أما د. أحمد عبدالحليم عطية من مصر فقد جاءت مداخلته بعنوان «الخوف من الحرية قراءة في عمل إيرك فروم» الذي صدر عام 1942، ويهدف فروم من عمله الى تحليل العوامل الدينامية في طابع تكوين الإنسان المعاصر التي جعلته يرغب في الكف عن الحرية في الدول الفاشية. ويطرح أسئلة من قبيل: ما هي الحرية كتجربة إنسانية؟ ما هي العوامل الاقتصادية في المجتمع التي تتسبب في الشوق إلى الحرية؟ هل يمكن أن تصبح الحرية عبئا لدرجة لا يستطيع أن يتحمله الفرد ويحاول أن يتخلص منه؟ لماذا تكون الحرية للعديدين هدفا منشودا وللآخرين تهديدا؟ أليس هناك ايضا ـ على وجه الاحتمال ـ بجانب الرغبة الفطرية في الحرية، رغبة غريزية للخضوع؟ هل الخضوع دائما هو خضوع لسلطة خارجية محددة أو هل هناك ايضا خضوع لسلطات باطنية مثل تأثير الرأي العام؟ هل هناك اشباع خفي في الخضوع وما هي ماهيته؟ يستنتج فروم أن هناك ملايين شفوقة بأن تسلم حريتها بالقدر الذي فيه ملايين يقاتلون من اجلها، فهم بدل من أن يريدوا الحرية يبحثوا عن طريق للهرب منها، اضافة إلى أن هناك ملايين أخرى غير مكترثة ولا تؤمن بأن الدفاع عن الحرية جدير بالقتال والموت من أجله. كما قدم د. عبد الجليل كاظم الوالي من جامعة الإمارات بالعين مداخلة بعنوان «تأويل الأنا للآخر سلطة: الفارابي نموذجا» وجاء فيها «شغلت فلاسفة المسلمين منذ أن وجدت الفلسفة الإسلامية على يد مؤسسها الكندي وصولا إلى طور نضجها التأويلي عند ابن رشد الذي يمثل خلاصة نضج العقلانية في الفلسفة العربية الإسلامية، وكان الخيار العقلاني هو الخيار المناسب للحضارة العربية الإسلامية لانه يعبر عن حيوية الحضارة وقدرتها على التفاعل مع الحضارات والتيارات الأخرى المعاصرة لها.

وكانت المسألة المركزية التي اهتم بها الفلاسفة المسلمون، هي تأويل الفلسفة اليونانية، لذا فالأنا الذي اقصده هنا هو وقفة كل فيلسوف مسلم إزاء الآخر الذي هو الفلسفة اليونانية، ، الانا هي السلطة التي فرضت نفسها على الواقع الثقافي العربي، واختلفت أهداف التأويل عند الفلاسفة المسلمين إذ نجده عند الكندي موجهاً إلى الفلسفة اليونانية عامة، ومن ثم إلى الدين والفلسفة، أما عند الفارابي فكان موجها إلى الفلسفة اليونانية عامة ومن ثم إلى العقل والعقل خاصة، بعدها إلى الطبيعة وما بعد الطبيعة، وتوج في تأويل العلاقة بين الدين والفلسفة، وهكذا يستمر الهدف عند ابن سينا مع استبعاده موضوع التوفيق بين العقل والعقل والطبيعة وما بعدها، لكن الحال تختلف عند الغزالي الذي كان اهتمامه منصبا على ما قدمه الفلاسفة المسلمون من فلسفة، من خلال النظر إليهم وفقا لمنظار فلاسفة اليونان، لذا كان تكفيره لمن اتبع الفلسفة المشائية، عليه فأن اتجاه التأويل عند الغزالي منصب أيضا على النظر إلى الأنا الذين هم الفلاسفة المسلمون من خلال الآخر الذي هو الفلسفة اليونانية، وكتابه تهافت الفلاسفة خير نموذج على ذلك، لكن هذه الحال لم تستمر هكذا إذ انبرى ابن رشد للغزالي ووضع الأمور في نصابها الصحيح، وكان التأويل عنده منصبا على النصوص الأرسطية، وهو يعد مؤسساً لفلسفة التأويل أو فقه التأويل «أما د. مازن مطبقاني من جامعة الملك سعود فقد تناول» مصدر الخوف: الإسلام أم الغرب» وقال فيها «ظهر منذ سنوات وبالتحديد بعد سقوط الشيوعية وانهيار الأنظمة المختلفة في أوروبا الشرقية مصطلح (الخوف من الإسلام) Islam pho-bia وكثرت الكتابات حول الخوف من الإسلام ولكن لم يلتفت الكثير إلى أن الخوف من الغرب هو الأولى بالبحث والدراسة فهو الذي يملك القوة المادية والفكرية والثقافية والسياسية في العصر الحاضر، فقد كتب بكر بصفر قبل سنوات حول تصريحات الرئيس الأمريكي جورج بوش عن النظام العالمي الجديد قائلاً: «لا أدري أين يجد الحالمون بالنظام العالمي الجديد له أثراً وهم يشاهدون تفاقم هيمنة الغرب على العالم بأقماره الصناعية وبوكالات أنبائه وإذاعاته وبقية وسائل إعلامه التي يذيب بواسطتها ثقافات الشعوب ويهيئها للاندماج في المركزية الثقافية الغربية»؟ ويقدم الأستاذ بصفر إحصائية لهذه السيطرة فيذكر أن أربع وكالات أنباء غربية تسيطر على 80 % من جميع الأخبار التي تبثها وسائل الإعلام في العالم، ويسيطر الغرب على المواد الإعلامية الترفيهية والثقافية كما الأفلام والمسلسلات، أما في المجال الإذاعي فتتحكم الدول الغربية في 90 % من الموجات الإذاعية، ألا نخشى الغرب وقد أصبح منذ أكثر من مائتي عام مصدر العلوم المختلفة، فقد درس وما زال يدرس أعداد من أبناء هذه الأمة في جامعاته ومراكز بحوثه وهو الذي يعقد المؤتمرات للحديث عن أوضاعنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وعن أدبنا وعن الفلكلور وغير ذلك.

ليس المقصود بالحديث عن تهديد الغرب للإسلام والعالم أن يصيبنا الخوف والجبن والهلع من هذا ولكننا نقول كفوا عن التخويف من ظاهرة عودة الأمة الإسلامية إلى دينها. فالتهديد الحقيقي هو الصادر من الغرب الذي أسس الشركات المتعددة الجنسيات، وقدم الخبرات، وأنشأ مؤسسات الاستخبارات الضخمة جداً ذات الأيادي الطويلة».

ومما يجدر ذكره هنا أن رئيسة مجلس أمناء جامعة فيلادلفيا السيدة ليلى شرف كانت قد افتتحت أعمال المؤتمر، والمعرض التشكيلي الخاص بالفنان الأردني محمد الجالوس، ومعرض مؤلفات أعضاء هيئة التدريس في جامعة فيلادلفيا، وكانت المؤتمرات العشرة السابقة قد ناقشت منذ العام 1995 عدة موضوعات أساسية هي على التوالي: الذات والآخر، التفاعل الثقافي، تحليل الخطاب العربي، العولمة والهوية، الحداثة وما بعد الحداثة، الحرية والإبداع، العرب والغرب، الحوار مع الذات، استشراف المستقبل، ثقافة المقاومة، وقد تألفت لجنة منظمة للدورة الحالية مؤلفة من د. صالح أبو إصبع رئيسا وعضوية كل من: د. عزالدين المناصرة نائبا لرئيس اللجنة المنظمة، د. محمد عبيد الله أمينا للسر والمنسق الإعلامي، وعضوية كل من: د. حسن عليان، د. خليل نوفل، د. بشار ماريني، د. توفيق شومر، د. مهند مبيضين. وستصدر أعمال المؤتمر في مجلد خاص يوزع على المهتمين.

تأملات في موت كمال سبتي على كرسي موحش، في مدينة صنعها النسيان

فاروق يوسف*

«تلك السعادة غائبه
صبر مضى، صبر سيمضي وهي طعم ما تمطقه اللسان
كأنما منذ الازل
وكأنما من ليلة أو ليلتين
كأنما ولدت باسبانيا القريبة كالامل
أو كالازل
وكأنما اندثرت بارياف البلاد الواطئه
تلك السعادة غائبه
هي هاهنا قولوا وربتما سأضحك من ظنوني
كأس شاي الصبح والبيض المكرر كل يوم والدجاج
السهل في طبخ الغداء
ورحلة الارزاق من بيتي الى سوق النبيذ الحلو مرتفع
الكحول
وعودة حتى بلا ادني صفير للمزاح مع النساء
بلا فضول للكلام عن السماء وغيمها
وبلا خرافة أن ترى عيناي في المشي الطريق
مخافة من ايما عثر،
وإلا دندنه
بقصيدة في المشي عن ايلام اسبانيا
ـ اليها .. ثم لا ترجع ولا ترجعـ

سأضحك من ظنوني كل كأس من نبيذ، كل دندنة ببيت
أول،
وبغصة في الدندنه:
تلك السعادة غائبه».

كمال سبتي 2005

[1]

عاش الشاعر العراقي كمال سبتي (توفي قبل ايام في سيتارد الهولندية) مستثنى من كل بداهة. كانت حياته مجموعة متلاحقة ومتقاطعة من الاستثناءات التي وهبته صورة البطل المتمرد الذي يحرص في استمرار على أن يغذي قطيعته باسباب خلاف نبيل وصلب، تضفي على شخصيته سحرا مضافا. لقد صنع قدره وحيدا وغريبا ونافرا. ومع ذلك فانه لم يعش أبدا لحظة ضعف، بل كان يقوي نفسه بخزين من القناعات التي تعلي من شأن الأسى لتضعه في مصاف الأمل. كان شعوره بالعزلة يتسلل الي من خلال صوته الذي كان يصلني في الاونة الاخيرة يوميا. كان لا يصدق أن الزمن مضى بمثل هذه السرعة بنا فتجاوزت اعمارنا الخمسين، كلنا (نحن ابناء ما اصطلح على تسميته في العراق بجيل السبعينات الشعري). لم نعد شبابا، بل نحن في الحقيقة ننحدر الى خريف العمر من غير أن تعدنا الرؤيا بوطن. وهناك من بيننا من ذهب الى الموت تاركا دفاتر يتسلى بها الآخرون مبهورين، مثلما فعل رعد عبد القادر. واذا ما كانت الحكمة (بشكلها السافر) قد تسللت الى شعر كمال فصنعت كتابه الأخير : صبرا، قالت الطبائع الاربع (الصادر عن دار الجمل 2006) فلم يكن ذلك الحدث إلا مؤشرا خطيرا على استسلامه لشيخوخة مبكرة، الامر الذي مهد لوقوعه تحت طائلة البداهة التي تقول: (الوحيد يموت مبكرا). وهي البداهة الوحيدة التي انتصرت عليه، وأخذته معها بعيدا عنا لينتهي بها الفصل الأخير من اسطورة رجل أبى سوى أن يكون آسرا لا أسيرا، في الشعر كما في الحياة. فكمال سبتي لم يكتف بعدم الاحتماء بالاحزاب والتكتلات السياسية العراقية التي اقيمت في المنافي، وهو المعارض الصلب للديكتاتورية، بل كان يهاجم ما تنطوي عليه تلك التجمعات من قطيعية طائفية و فكرعشائري مريض. وكان ذلك حرصا منه على أن يقدم نموذجا للمثقف المستقل، المتمسك بنزاهة المبدأ. وهو ما جعله يقف وبقوة ضد الغزو الامريكي للعراق، في الوقت الذي كان فيه حاملو شعارات اليسار قد صنعوا من سمعتهم قرابين لتدوسها عجلة الحرب الامريكية. كان كمال سبتي رجل العزلة الذي ليس من اليسير اختراقه أو اللعب بقناعاته. ويمكنني القول أنه ينتمي الى القلة التي تعرف ماذا تريد وماذا تفعل. في حوار مع اسكندر حبش يقول: ـ لا عدو للشعر أقسى وأخطر من الحزب، أي حزب. كان علينا في المنفى أن نقوم بهدد جبار من أجل تحرير الادب من ربقة العبودية الحزبية. وفي ما يخصني فلقد كتبت مئات الصفحات حول هذا الأمر مقالات ورودوا حتى تغير الأمر بعدها فأصبح من العار على شاعر عراقي أن يلفظ اسم حزب أو ايديولوجيا في حضرة الشعري البهي الخالص.الايديولوجيا مسطرة للوعي والمشاعر يرفضها الشعر والعقل المتحرر، والحزبي في الأدب والكتابة هو عنصري سادي مريض هدام ينبغي أن يقدم الى محكمة العدل الدولية في لاهاي كونه مجرما في حق الانسانية لا أن يفكر في نيل الجوائز الادبية ـ. هذه المعاني وسواها صنعت من حوله جبهات زادت من عزلته، وفي المقابل فانها توجته في أعين الكثير من الشباب بصفته نبيا أعزل تشبها بتروتسكي، الشخصية الماركسية الوحيدة التي سحرته وخصها بمحاضرة طويلة، لا ابالغ إذا ما قلت أنها كانت تجربة فريدة من نوعها في الكتابة التي تمزج الادب بالسياسة بالتاريخ.

[2]

آخر مرة التقيته في منفاه الهولندي عام 2001، كان يعيش زاهدا، غير أنه لم يكن ليترفع عن الدخول في حروب صغيرة دفاعا عن قناعاته ضد السياسي والحزبي بصيغتهما العشائرية، وهي اختراع عراقيي المنافي كما كان يقول. بعدها حل الصمت بيننا، وفجأة قبل سنة بالتحديد، فوجئت أن كمال يحضر بصوته لنستأنف صداقتنا من جديد. كان هذه المرة قد فرغ من كل حروبه. غير أنه كان يعاني من ثغرات واضحة في ذاكرته الحديثة (ربما بتأثير حياة العزلة التي يعيشها في بلدة لا يعرف من سكانها سوى صديقته، وهي رسامة هولندية يبدو أنها كانت تجيد الاسبانية أو هكذا يخيل الي) اما ذاكرته العراقية فقد كانت على قدر هائل من الوضوح والاستنفار. كان يتلو علي أحداثا شخصية غابت عن ذهني تماما، عشناها سوية في السنوات العصيبة التي قضاها منفيا في بغداد ما بين قدومه من الناصرية عام 1974 الى لحظة هروبه الاعجازي عام 1989 حين اختفى في مطار روما وهو محاط باعضاء وفد رسمي من ادباء السلطة. كانت رحلته فيما بعد نوعا من الاوديسة وصولا الى اسبانيا. ولكن كيف انضم كمال الى حشد السبعينيين بقوة وهو الغريب عن بغداد؟ ربما يكون الشاعر والمفكر كاظم جهاد هو السبب، وهو ما ارجحه. لقد حضر جهاد الى بغداد مثل عاصفة، ماكنة لانتاج شعر مدهش، سارع البعض الى دعم طبعه في الكتاب الوحيد الذي صدر لجهاد في بغداد عام 1974 (يجيئون أبصرهم). ولقد تزامن صدور ذلك الكتاب مع احتفاء مجلة الكلمة (ذات الانحياز الادبي الستيني) بظهور جيل شعري جديد. يومها لم يكن كمال سبتي معنا. غير أن حضوره بدا واضحا ومقلقا وصادما بعد ذلك بقليل بعكس عقيل علي (وجد ميتا على أحد الارصفة في بغداد قبل حوالي سنة) الذي بشر به جهاد كثيرا. كمال كان نوعا من المثقف الحيوي، الذي يريد له مكانا في دائرة الحدث الثقافي، وهو ما استطاع أن يكونه بدءا من عام 1978، بعدها صدرت كتبه الشعرية (وردة البحر) (ظل شيء ما) (حكيم بلا مدن) (متحف لبقايا العائلة)، قبل أن تسنح له الفرصة لكي يكون منفيا، بدلا من أن يصبح لعثمة طارئة وخرساء في آلة حرب مرعبة. كانت طريقه الى هولندا التي وصلها متعبا طويلة. ولكنها الطريق التي أهلته لكي يأخذ المعرفة الى الشعر بعكس تلك الطريق التي سار عليها كاظم جهاد من قبل، حيث التهمت المعرفة الشعر.

[3]

يقول كمال سبتي: ـ انا لست سعيدا في حياتي. هذا ليس سرا، لكن هناك أمر آخر في شعري أهم فنيا ومعنويا من الحزن وأعني به التراجيديا الشخصية. قلت مرة إن المعرفة ستكون باردة بدون تراجيديا شخصية. فما بالك بالشعر. انا أسعى إلى أن تكون التراجيديا حاضرة في شعري. انا شاعر تراجيدي. ساقول إن التراجيديا معلمتنا. لا طعم للأدب كله والفن كله بلا تراجيديا شخصية. الشعراء اللغويون أفسدوا الشعر بملئه بتراجيديا لغوية باهتة وباردة. الشعر لا يصنع بتراجيديا ذهنية متخيلة في اللغة ذاتها. إنه دم الشاعر وحكايته الشخصية في هذه الحياة. لا امنع المرفهين والاثرياء من أن يقولوا إنهم معذبون. لكنني لا اطيق شعرا تكتبه كائنات لغوية ذهنية باردة لا يمكن لمأساة أن تصبح لعبة لغوية.

إن اصبحت كذلك فهذا جرم مشهود ـ. يؤكد الشاعر الراحل هنا انه لا يجد من عمل يستهويه مثلما هو سعيه الى كتابة سيرته الشخصية شعرا، وهي سيرة يمتزج من خلالها الم المعرفة بخبرة العذاب الشخصي. وهو ما بدا جليا في كتبه التي اصدرها خارج العراق: (آخر المدن المقدسة) (آخرون قبل هذا الوقت) (بريد عاجل للموتى). وهي كتب للأسف طبعت بشكل سيء ووزعت بشكل أسوأ. وقد يكون مفاجئا إذا ما قلت أن سيرة كمال سبتي يمكن اختصارها بفكرة نوفاليس عن حلم العودة الى البيت. لقد عاش سبتي حياته كلها خارج البيت. حتى أنه كان يقرن حنينه الى بغداد برغبته في العودة الى غرفة صغيرة في فندق الصياد، حيث ترك هناك حقيبة ثيابه قبل أن يغادر العراق نهائيا. الان لم نعد واقعيين كما كنا. غالبا ما كان كمال يفكر بالشاعر الشهيد علي غرار السياب أو حاوي وهو يعرف أن صفة الشاعر النجم لن تكون من نصيبه. ذلك لأنه اختار ان يسير على طريق يصنعها شغب روحي لا يبارك الآني بل يرتجل أبده الخاص.

* شاعر وناقد من العراق يقيم في السويد

كمال سبتي

جانب من احدى الجلسات (القدس العربي)

يا محمد.. هذا كتاب إلى الناس

حميد سعيد *

قبل أن يلتقي ملكوت السماء .. كانَ الفتى القرشيّ
يرى الأرضَ موحشةً .. ويرى الناس في غيهِّم يعمهون

***

هي أسئلةٌ تتوالى.. وأجوبةٌ تتوارى
ثمّ كانَ اللقاءُ ..
إلى الآن..
والكونُ يصحو على ألقِ الوحي.. حيثُ النداءْ
أقرأْ
كأنّ السماوات والأرضَ.. غارُ حِراءْ
يا محمد ..
هذا كتابٌ إلى الناسِ
.....
.....

كنْ
فيكونْ..
تَغزلُ أمّ القرى ثوبَها النبويّ..
مما تبقّى لها من رؤى الأولينْ
ومن نور ما أنزلَ اللهُ ..
طا .. سين
روحٌ يعيد إلى الأبجدية ما سلبتهُ الضلالةُ منها
ويُبعد عنها .. رمادَ الأساطير
هذا السلامُ الذي يتنزّل في الروح.. قرآنهُ العربيْ
رجلٌ ونبيْ..
الأمين الذي علّمَ الناس أنّ الطريق إلى الله ..
يبدأ من مشرقِ اليُسرِ
طا .. سين
صوتُ اليقينْ
يا محمد ..
خُذْ رايةَ السماء إلى كوكبِ العارفين
تخرج الجزيرةُ العربيةُ من ضنكِ الشركِ
يعتكف الطواغيتُ ..
هذا الفضاء النقيّ تختاره البلاد .. بلاداً
تقيم بها الطمأنينةُ ..
في ليل مكة تعترضُ السيدَ اليتيمَ .. طفولته
وتعلّمهُ .. أنّ ما كانَ غير الذي سيكونْ
وأنّ الجنانَ التي في انتظار وعود النبوة ..
غير الجنونْ
رأى مدنا حملتهاُ إليه الرؤى..
هل سينقذ مكة من نفَسها؟!
ويعلمها .. أن تكون كما كانَ..
لا أنْ تكونْ.....
الغلاةُ بأوهامهم وبإرث السنينْ
الغلاةُ بآبائهم وبأنفسهم
تتعثّر أحلامهُم بحجارة أوثانهم..
بالذين نأى طائر النور .. عن ظلمات منازلهم

***

يا لهذا الفتى القرشيّ
كيف تحمّلَ ما كانَ من زمنٍ ؟ وتحملَ وحي السماء..
أقرأْ
تدور به الأرضُ .. تجمعُ بين مشارقها والمغارب..
هذي عروشٌ تصدّع من خشية الكلمات التي تتنزّل ..
في الروح ..
كأن يرى كوكباً .. ينشر الضوءَ بين المنازلِ
ثم يرى سيلَ زمزمَ يسقي ربوعَ الجزيرة ..
تخرجُ من رملها مدنٌ ..
ستكون .....

***

قمْ بلال..
فقامَ وأذّن.. في الناس ..
مذاكَ والناس يأتون من كل فجٍّ عميق..
وصوتُ بلال..
يُحرر أرواحَ أسيادهم والعبيدْ
أنّ هذا النشيدْ
يصعدُ بالحائرين إلى ملكوت السماء
ويختار للمتعبين طريقاً .. إلى لحظةٍ في زمان جديدْ
الطغاةُ الأذلاء والسادة الخائرون..لما يروا زمناً..
غير ذاك الذي يتعفّن في المدن الميتةْ
صممٌ وخواءْ
في الحجارة والرملِ .. والطينِ والماءِ ..
يأتي النداءْ
اقرأْ..
ويقرأُ .. تفتحُ أبوابها البيوت بمكةَ
يخرج منها الذين استفاقوا .. على نبأً ..
يا محمدُ..
هذا كتابٌ إلى الناس
أما الذين يقيمون في عالم بارد..
إذ تخطفّه طائر الموت .. مذ أطفأوا نار أحلامهم
سيقولون.. ماذا يريدُ بنا؟!
أو مخرجُنا هو.. من سحرِ هذا الرقاد؟!
إلى حيث..
ينزع عن صفحاتِ كتابٍ ورثناهُ.. ما ألفته البلادْ
..
.....
.....

كوثرٌ في البيوت التي يقرأ الناسُ فيها..
ألف لام ميم
من مُبتدأ الوحي حتى تخوم الزمانْ
كوثرٌ في النفوس
ونداءٌ يوحّدُ بين السماوات والأرضِ
بينَ الخشوعِ إلى الله والعنفوانْ
وكتابٌ .. يعيدُ إلى الخائفين الأمانْ

***

الحييّ الذي فرّ مما حباهُ الأله.. الطغاةْ
واليتيمُ الذي علّم الناسَ .. معنى الحياةْ
والفقير الذي جعل الخبزَ ..حقاً
وكان النداءْ
يا سين ..
خذ بيد الحائرين
2006/3/1

* شاعر من العراق